بين الحيوان والنبات

للاستاذ مصطفى الشهابي

لي صديق عكف على الحيوانات فتوغل في مدارسة خَلْقها وطبائعها ومنافعها ومضارها حتى اذا هضم منها ما لا يستهان به من المعلومات صار صديقاً لها يكثر من ذكرها ويشيد بفوائدها في كل المجالس . وكان يعلم انني اميل الى النباتات وانني لا اعدل بها شيئاً من الاحياء السائرة فكان يتعمد ذمها امامي ليستفزني الى مناظرته . لكنني كنت اتجنب منازلتهُ واتحاشى مقارعته ، حتى كان يوم من الايام واذا بي اراه في المخبر وقد دخل عليَّ دامراً لا مستأذناً فوجدني جانياً على بعض الازهار اتفحص عن مواقع أجزائها واتقصاها . وحانت منهُ التفاتة الى احدى زوايا المخبر فرأى على الارض جلجم بعض الحيل والانعام وعظامها وقد علاها النبار لفرط اهمالها ، فما كان منهُ الاَّ ان انفجر بحديث طويل يدل على ما يكنُّهُ صدره من الحفيظة والموجدة قال :

ان امرك مع دوحة النباتات عجب . اراك تُعنى بأشجارها وتشغف بأزهارها وتستلذ اثمارها وتستخفك خيارها لكنك تتناسى شرارها . هلاَّ ذكرت ان جميع الجراثيم القتالة التي يسومها مكروبات تنتسب الى رتبة الأشنة الزرقاء فهي اذن من النبات لا من الحيوان ، وان معظم امراض الورم والشجر مصدرها فطور دقاق مجهرية تستولي على مزروعاتك ومغروساتك فتفسدها وتبيدها وهذا التطور هي ايضاً من النبات لا من الحيوان . وربما كان عملها هذا اي فتكها بأبناء جلدتها اشد واضر من فتك الحيوان بالحيوان . ثم انظر الى الاعشاب السامة ما اضرها كالشوكران واليروح والعنصل والطيّان والزؤان وغيرها ، واضر منها تلك المخدرات المذهلات القاهبات بحسك والطائحات بلبك كالافيون والحشيش والكوكائين والكوتين ، دع التي لا يدخل منها ذرة في جوفك حتى تبعث بك حثيثاً الى حيث استقر اجدادك في العالم الثاني كسم الاستركنين واضرابه من المواد النباتية الخبيثة . واذا انت ملامس بعض النباتات اليس لبعضها شوك طالما آذى الناس في عيونهم وايديهم وارجلهم ؟ واذا فتكت بعض الحيوانات ببعض افنفسي بعض الطفيليات من النباتات التي لا تعيش الاَّ من طلّ مضيفها اي نسغه كالكشوث والدؤنون والدبق واشباهها ؟

وبعد ان بلع الصديق ريقه قال :

لا سبيل الى الموازنة بين فوائد الحيوان وفوائد النبات . وهاك الحمار مثلاً : ينهمه الناس بالبلاهة مع انه خير للمرء من بعض ابناء جنسه للتشحين بالذكاء . اتدري اننا نركبه ونحمله اثقالنا

من ايام حقبة الحجر المصقول في فجر الانسانية الى يومنا هذا وهو على جورنا صابر يقنع بالقليل من الطعام ويقوم بواجبه خير قيام لقاء قليل العلف الذي يُعلفه . وهذه الصافنات الجياد من الخيل العراب شيءٌ ما يبدو على محياها من سيماء النبل وجلال العتق . وما احقر السيارة امام عربة يقودها زوج من الجياد عليهما الاعنة المذهبة وهما يختالان كعروسين او يشتدّان عدواً وافي الرأس شائلي الذنب ضاربي الارض بقوائم كمقامع من حديد . والعز على متون الخيل . وما ظفر الظافرون في الفتوحات الاّ بالجياد السريعة في جريها المروّضة على الكرّ والفرّ في مجاج الحروب ورهج الملاحم

وما عيشة الناس في الفلوات بغير الابل . ولولاها لزالت البداوة ولفقد الانتفاع بالصحاري والمغاور . لحمها لذيذ ووبرها ناعم ولبنها حلو مليّن للمعدة مطهر للمعى وجلدها صالح لصنع النعال والقُرَب للطعام وظهورها تحمل الاحمال الثقال ، وهي آية الصحراء التي لا تعد مناقبها ولا تذكر مثالبها . ومن ذا الذي لا يعجب بالعز التي يقتات بلبنها الفقير المعدم دون ان يطمع من مال الغني بفلس ، وبالنعجة التي تجزّ صوفها ونشرب حليبها ونأكل لحمها طعاماً شهيًّا . وبالبقر الذي نحرث به الارض ونأكل منهُ اللحم ونصنع من لبنه الزبدة والجبن

وأراك تملأ الدنيا صياحاً من اضرار الحشرات . لكنك لا تذكر بخير دودة القز عند ما تمتع طرفك بأثواب الحرير التي ترفل بها فواتن النساء وانت ترغد ببيت ابي الطيب المتنبي

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

او ببيت النحل البكري

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

ولقد سهيت عن فوائد النحل وشهده وحشرة القرمز واصباغها والحشرات الناقلات اللقاح الى سمات الازهار

ولماذا لا نتحدث عن الفراش وتزاويقها والطير وتغاريدها وصيد البر والبحر وما في اقتناصه من لذة . وهل عاش اجدادك الاقدمون الاّ من الصيد قبل ان يعمدوا الى النباتات يداً

ولما رأيت صاحبنا قد استرسل في حديثه ورأيتهُ مندفعاً فيه اندفاع الودق الهطال او السيل الجرّار وربما انقضت الساعات دون ان يقف أسكتُه صائحاً : على رسلك يا أخي . هوّن عليك الامر قليلاً ودع مجالاً لغيرك يتكلم . لقد آمنت ببعض ما ذكرته وكفرت ببعض . فالمكروبات هي من النباتات كما قلت . لكن دقائق الدود وغلافها كلها من الحيوان وفتكها بأعضاء الانسان كبير . والذي يسمعك تتكلم عن الحشرات وعن منافع بعضها يظن انك قد محيت بذلك اضرارها العظيمة وفظائعها الجسيمة حتى كدت تنسينا ارجل الجراد وقارضاتها ودودة القطن وويلاتها وحشرات المنّ وآفاتها وذبابة الفواكه وضرباتها وقتلع الاشجار وفتكاتها وعثة الالبسة ولحساتها وسوسة الخشب وتخريباتها . وكأني بك اذا ما تركتك وشأنك ستشهيني منظر القملة وتحبب اليّ رائحة البقة وتحملني

عن لسعة البعوضة وتفسيني إلحاح الذباب على الناس وتجعلني أسر لسروره وأقول مع عنترة العبسي « هزجاً يحك ذراعه بذراعه » الى آخر البيت المشهور . ولعلك لا يؤثر فيك لدغ الثعابين ولسع أم اربع واربعين . وستقول عما قريب ان الوثابير والعقارب لا حمات لها وان جميع هذه المخلوقات المخيفة هي آية الله في ارضه رونقاً وبهاء وبهجة واشراقاً . . . .

ومن العجيب انك تذكر بعض النباتات الطفيلية وعددها حقير لا يؤبه له وتنسى ان معظم الحيوانات لا تعيش الاّ من لحم الحيوان . فكبار السمك تلتهم صغارها ، والجوارح من الطير تفتك ببغاثها ، وسباع الحيوان يفترس بعضها بعضاً ، والدنيئة منها تسطو على خشاش الارض ، ومن الحشرات ما هو مسلط على حشرات اخرى وهكذا تتقاتل الحيوانات وتتفانى وهي في ذلك كالانسان بحروبه الهمجية واعماله البربرية . اما النباتات فمنها الحنطة والارز والذرة وسائر الحبوب التي فتنات بها منذ آلاف من السنين . ومنها البقول التي لا يضاهيها شيء بمخضها في المعدة . ومنها انواعك اللذيذة والتوابل والافاويه وما يستخرج منه السكر والنشاء وما تعصر منهُ الزيوت المختلفة . وماذا يعدل العنب وابنة العنب التي قال فيها الشاعر الكافر « هات التي هي يوم الحشر اوزار » . ولولاها أكان يكون ابو نواس وخمرياته . وما هو قوت أهم الحيوانات الدواجن التي تباهي بها . أليس هو الكلأ وسائر ما تنبته الطبيعة في المروج الطبيعية او يستنبته الفلاح في المروج الصنعية . ثم انظر الى الحراج واخشابها وتخيل فوائدها التي لا حدّ لها في معظم الصناعات البشرية حتى قال احدهم انه لم يهتد الى صناعة من الصناعات الاّ وهي في حاجة الى الخشب . ومن المعلوم ان الاخشاب تستعمل في صناعة الورق وعود الثقاب والفحم وفي بناء البيوت وفي تدفئة الغرف وفي رصف الشوارع وفي صنع الأعمدة والعوارض والعربات واقلام الرصاص والعصي وقبضات المظلات والخزانات والمنصات والكراسي والسلال الخ . ويستعمل لحاء بعض الشجر لاستخراج الدباغ منها كما يستخرج الفلين من احد انواع البلوط

وأي شيء اجمل في العين من زهرة ندية يروقك منظرها او ريحانة عطرة تنعشك رائحتها . واي بيت من البيوت الكبيرة او الحقيرة يخلو من حديقة للزهر او من حوض او من زهرة في أصيص . ولا شك انك عليم بضروب العطور وبالمياه العطرة . ولا تجهل ان ادقها في الأنف واغلاها ثمناً تلك التي تقطر من بعض الازهار والرياحين كالورد والبنفسج والياسمين والنيلك والعنبر وخيري البر والبعيثران وزهر الفصيلة البرتقالية وغيرها كثير ، دع ما يأتينا من البلاد الحارة كالبخور والجاوى واللبنى وامثالها من المنعمات

واذا انتقلنا الى النباتات الطبية ألفينا فيها المسكنات والمعرّقات والمسهّلات والقابضات والمشهيات والهضومات والمنبهات والمقيئات وطاردات الدود من البطن . واذا ما اعترتك الحمى فجمات جسمك يرتعد واسنانك تصطك فهل من دواء سوى خشب الكينا وما يهيأ منهُ . وقد

أسرفت يا صاح بذكر مثالب المكروبات الضارة ونسيت ان هنالك الخمائر التي لا غنى عنها في صنع الخبز والجبن والخمر وامثالها . ونسيت ايضاً ان من المكروبات ما يستعمل معملاً يحقن به الأصحاء اتقاء للامراض . وذكرت حشرة القرمز ولم تذكر نباتات الصباغ كالفوة والنيلة والحناء والعصفر . والطيب بالعرف والوبر ولم تطيب بالقطن والكتان وهو لباس سواد الشعوب . وهذه سيارتك واقفة امام داري فهل من سبيل الى سيرها الا بالمطاط في دواليبها والا بالبنزين يدفعها وهو من النفط والنفط من بقايا اشجار جيولوجية قديمة

وعبثاً حاول صاحبي ان يسكتني فلم اسكت حتى قرع الباب علينا زائر . واذا به صديقنا العلامة الدكتور امين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان فاحتكمنا اليه لان علمه بالنبات كعلمه بالحيوان . فلم يشأ ان يحكم بيننا بل قال لا نروم الى المفاضلة . فللنبات منافع ومضار وللحيوان منافع ومضار والامر جلي لا يحتاج الى مهذار . . . .

زهر يتفتح ليلا

يذهب بعضهم الى ان ما في الطبيعة من جمال الازهار وشذا عطرها، انما أبدعته الطبيعة لتكفي حسّ الجمال في الانسان . وهو قول شعريّ اكثر منهُ علمي ؛ لان بدائع الالوان وروائع العطور في أزهار النبات واوراقهِ ، متصلة صلة وثيقة بنشوئهِ وتطوّرهِ وتلقيحهِ واخلاف النسل فيهِ . فاذا أصرّ اصحابنا على رأيهم الشعري فلنذكر لهم نباتاً من فصيلة الصبير ، لا يتفتح زهرهُ ولا يعبق نشرهُ الا في الليل . فزهر هذا الضرب من الصبير، يبدأ في التفتح عند المساء ، ولا يأتي عليهِ الصباح الا وقد انطبقت اكمامه ، وتهدّلت تيجانها ، لا حيوية فيها ولا عطر ولا جمال . ولكنها تكون في خلال ذلك قد حققت الغرض الذي انشأتها الحياة لتحقيقهِ . ذلك ان بعض اصناف الفراش يكون قد زارها في الليل ، منجذباً بعطرها ، فينتقل من زهرة الى اخرى ، فيكون في خلال تنقله وسيلة الطبيعة لاحداث التلقيح . ويعرف هذا النبات باسم Cereus اي الليّن ، لان لهُ سوقاً طويلة دقيقة سهلة الالتواء يمتد فيها من أعلى الى اسفل اضلاع مقعّرة ، فيها على فترات متساوية شوك قاس . وهذا النبات اما معترش يتسلق الأشجار او يمتدّ على سطح الارض . اما قطر الزهرة من أزهاره فقدم وقد يبلغ اربع عشرة بوصة . ولكنك اذا رأيت البرعم في النهار لم تستطع ان تتصوّر ، ما ينطوي عليهِ من الجمال عند تفتحهِ في الليل . فلون اوراق الكأس بني قاتم من الخارج ولكنهُ اصفر زاهٍ من الداخل . وكأن الطبيعة اختارت هذا اللون الاصفر، لكي تزيد البهاء في بياض التاج . ويصحب هذا البهاء العذريّ ، عطر لطيف يفوح ليلاً فيجذب الفراش الى الازهار من مكان بعيد . والنبات متوطن في جزائر الهند الغربية ، ويرى في مستنبتات الازهار في انكلترا